إتْحَافُ التّائب

بِشَرْحِ وصيةِ ابنِ دقيقِ العيدِ للنّائِبِ

شرح

الشيخ الدكتور وليد بن إدريس المنيسي

Islamic University of Minnesota
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا

حقوق الطبع محفوظة لكل مسلم يرغب في
طباعتها للتوزيع المجاني

الناشر

دار الجامعة الإسلامية بولاية مينيسوتا للنشر
والتوزيع

الطبعة الأولى ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ مـ

إسنادي إلى المتن المشروح وجميع مؤلفات الإمام ابن دقيق العيد

أروي المتن المشروح وجميع مؤلفات الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله عن الشيخين محمد بن عبد الرزاق الخطيب الدمشقي الصالحي وعبد الرحمن بن شيخ العلوي الحبشي، كلاهما عن أبي النصر محمد بن عبد القادر الخطيب، عن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكزبري، عن الوجيه عبد الرحمن بن سليمان الأهدل، عن أبيه سليمان الأهدل، عن أحمد بن محمد مقبول الأهدل، عن يحيى بن عمر مقبول الأهدل، عن أبي بكر بن علي البطاح، عن يوسف بن محمد البطاح، عن الطاهر بن حسين الأهدل، عن الحافظ عبد الرحمن بن علي الديبع، عن عبد اللطيف الشرجي، عن نفيس الدين العلوي، عن سراج الدين بن النحوي، عن الحافظ ابن سيد الناس اليعمري، عن المؤلف الإمام أبي الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري القوصي المعروف بابن دقيق العيد المتوفي سنة ٧٠٢هـ، رحمهم الله أجمعين وألحقنا بهم في الصالحين .

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن المؤمن يحتاج دائما إلى التذكير بالله تعالى والدار الآخرة ، وإلى سماع وصايا الصالحين التي فيها الحث على الزهد في الدنيا وفيها التحذير من طول الأمل والحث على حسن العمل ، لذلك اخترت أن أعلق تعليقا يجلي معاني هذه الرسالة الموجزة التي اشتملت على نصيحة نصح بها الإمام ابن دقيق العيد نائبا له استنابه ليكون قاضيا، فذكره بخطورة تولي القضاء إن لم يتق الله ويعدل، ووعظه موعظة بليغة حري بنا أن نتأملها وننتفع بها ونتعظ بما فيها ، وبالله تعالى التوفيق

وكتب : وليد بن إدريس المنيسي

ترجمة الإمام ابن دقيق العيد

(٦٢٥ - ٧٠٢هـ)[١]

اسمه ونسبه:

هو الإمامُ المجتهد، مجدِّدُ الدِّين على رأس المائة السابعة، تقي الدين، أبو الفتح، محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي الشافعي المالكي المصري، الملقب بابن دقيق العيد.

---

(١) مصادر الترجمة « تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٤٨١)، «المعجم المختص» للذهبي (ص: ١٦٨)، «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٩/ ٢٠٧)، «مستفاد الرحلة والاغتراب» للتجيبي (ص: ١٦)، «الطالع السعيد» للأُدفُوي (ص: ٥٦٧)، «الوافي بالوفيات» للصفدي (٤/ ١٣٧)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٢٧)، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٢/ ٢٣٠)، «الديباج المذهب» لابن فرحون (ص: ٣٢٤)، «شجرة النور الزكية» لابن مخفوف (١/ ١٥٨)، «الدرر الكامنة» لابن حجر (٥/ ٣٤٨)، «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (ص: ٣٩٤ - ٤٠٣)، «التبيان لبديعة البيان» لابن ناصر الدين (٣/ ١٤٣٨)، «ذيل التقييد» لتقي الدين الحسني الفاسي (ص: ١٩١)، «طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص: ٥١٦)، «فوات الوفيات»لابن شاكر الكتبي (٢/ ٤٠١)، «مرآة الجنان» لليافعي (٤/ ٢٣٦)، «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٨/ ٧٩)، «شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ٥)، «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٢٢٩)، «كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ١٣٥، ١٥٨، ٤١٧)، (٢/ ١١٥٧، ١١٦٤، ١١٦٩، ١١٧٦، ١٨٥٦) «الأعلام» للزركلي (٦/ ٢٨٣)، «معجم المؤلفين» لكحالة (١١/ ٧٠).

وسبب لقبه، أن جَدّه وهب بن مطيع لبس فى يوم عيد ثيابًا بيضاء، فرآه جماعة من أهل الريف، فقال قائل منهم: كأن ثيابه دقيق العيد ؛ فلزمه هذا اللقب واشتهر به وذريته.

مولده ونشأته:

وُلد – رحمه الله – يوم السبت، في الخامس والعشرين من شهر شعبان، سنة (٦٢٥) هـ، في مدينة ينبع بالحجاز على ساحل البحر الأحمر، وأبواه متوجهان إلى الحج، وأصل أبيه من منفلوط بصعيد مصر.

وقد ذكر والدُه – رحمه الله – أنه أخذه عند ولادته وطاف به الكعبة، وجعل يدعو الله أن يجعلَه عالمـًا عاملاً.

ثم انتقل به أبوه إلى قوص –بلدة في محافظة قنا بمصر– فنشأ بها، ثم تنقل طالبا للعلم بين دمشق، والإسكندرية، والقاهرة، واستقر به الْمُقام في القاهرة إلى أن مات.

مذهبه ومناصبه:

برع في المذهبين المالكي والشافعي.

تولى قضاء قوص، وكان القضاء في قوص على المذهب

المالكي، وكان الأمير يشترطُ أن يكون القاضي مالكيـًا.

ثم وُلِّي منصب (قاضي القضاة) في مصر، وكان هذا المنصب للشافعية، فتولاه باعتباره شافعيـًا، وانتقل إلى القاهرة سنة (٦٩٥)، وظل فيه إلى أن مات رحمه الله تعالى.

علمه وخلقه:

قال شيخه العز بن عبد السلام: «ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها: ابن منيِّر بالإسكندرية، وابن دقيق العيد بقوص» .

وقال ابن تيمية: «الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد شيخ وقته»[(١)] .

وقال ابن كثير: «أحد علماء وقته، بل أجلهم وأكبرهم علمًا وديناً وورعًا تقشفًا ومداومة على العلم في ليلة ونهاره مع كبر السن والشغل بالحكم، وله التصانيف المشهورة، والعلوم المذكورة».

وقال القرافي: «قام الشيخ تقي الدين أربعين سنة لا ينام الليل إلا أنه كان إذا صلى الصبح اضطجع على جنبه إلى حيث يضحى النهار».

وقال الحافظ قطب الدين الحلبي عن الإمام ابن دقيق: «وكان

(١) مجموع الفتاوى٢/ ٢٤٤.

لا ينام من الليل إلا قليلاً، ويقطعه فيما بين مطالعة وتلاوة وذكر وتهجد حتى صار السهر له عادة، وأوقاته كلها معمورة لم يُرَ في عصره مثله».

وقال السبكي: «الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، الحافظ الزاهد الورع الناسك، المجتهد المطلق، ذو الخبرة التامة بعلوم الشريعة، الجامع بين العلم والدين، والسالك سبيل السادة الأقدمين، أكمل المتأخرين، وبحر العلم الذي لا تكدره الدلاء، ومعدن الفضل الذي لقاصده منه ما يشاء، وإمام المتأخرين، كلمة لا يجحدونها وشهادة على أنفسهم يؤدونها، مع وقار عليه سيما الجلال، وهيبة لا يقوم الضرغام عندها لنزال، هذا مع ما أضيف إليه من أدب أزهى من الأزهار..

ولم ندرك أحدا من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي، وأنه أستاذ زمانه علما ودينا..

وأما دأبه في الليل علما وعبادة فأمر عجاب ربما استوعب الليلة فطالع فيها المجلد أو المجلدين وربما تلا آية واحدة فكررها إلى مطلع الفجر استمع له بعض أصحابه ليلة وهو يقرأ فوصل إلى

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] قال فما زال يكررها إلى طلوع الفجر

وكان يقول: ما تكلمت كلمة ولا فعلت فعلا إلا وأعددت له جوابا بين يدي الله عز وجل».

مؤلفاته :

١- الإمام في معرفة أحاديث الأحكام

وهو كتاب لا نظير له في جمع طرق الحديث على الأبواب الفقهية، وجمع شواهده، وشرح غريبه، وضبط مشكله.

قال في مقدمته: ما وقفت على كتاب من كتب الحديث وعلومه المتعلقة به، سُبِقتُ بتأليفه وانتهى إليَّ، إلا وأودعت منه فائدة في هذا الكتاب، إلا ما كان من كتاب «التاريخ الكبير» للإمام أبي عمر الصَّدَفي، فإني لم أره.

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: هو كتاب الإسلام، ما عمل أحدٌ مثله، ولا الحافظ الضياء، ولا جَدِّي أبو البركات.[١]

(١) «الطالع السعيد» للأدفوي (ص: ٥٧٥).

٢- «الإلمام بأحاديث الأحكام»:

وهو كتاب يحفظه المبتدئ.

قال عنه: صنفت مختصراً لتحفيظ الدارسين، وجمعت رأس مال لإنفاق المدرسين.. وشرطي فيه ألا أوردَ إلا حديثَ من وثّقه إمامٌ من مُزكِّي رواة الأخبار، وكان صحيحاً على طريقة بعض أهل الحديث الحفاظ، أو بعض أئمة الفقهاء النظَّار، فإن لكل منهم مغزى قَصَدَه وسلكه، وطريقاً أعرض عنه وتركه، وفي كل خير.

قال السبكي: واعلم أن الشيخ تقي الدين - رضي الله عنه - توفي ولم يبيِّض كتابه «الإلمام»، فلذلك وقعت فيه أماكن على وجه الوهم وسبق الكلام[١].

٣ - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، من أجلِّ شروح «عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني المقدسي.

٤- شرح مختصر ابن الحاجب في الفقه.

قال في مقدمته: وحق أن نشرح هذا الكتاب شرحاً يُعِين الناظرين على فكِّ لفظه، وفهم معانيه على وجه يسهل للماهر مساغه وذوقه،

---

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ٢٤٦).

ويرفع القاصد فيلحقه بدرجة من هو فوقه، ويسلك سبيل معرفته ذللاً، ويدرك به ناظرُه من وضوحه أملاً.

٥- «**الاقتراح في بيان الاصطلاح**» في مصطلح الحديث.

٦- **شرح الأربعين حديثا للنووي.**

أشهر شيوخه:

١- **الحافظ الإمام عبد العظيم بن عبد القوي، أبو محمد المنذري الشامي المصري.**

علامة الحديث وأستاذه، على اختلاف فنونه، له تصانيف عدة منها: «الترغيب والترهيب»، و «مختصر مسلم»، و «مختصر سنن أبي داود»، توفي سنة ٦٥٦ ه.

٢- **شيخ الإسلام وسلطان العلماء، عبد العزيز بن عبد السلام، أبو محمد السلمي الشافعي.**

بلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب مع الزهد والورع، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلابة فِي الدين.

قال عنه الشيخ ابن دقيق: كان ابنُ عبد السلام أحدَ سلاطين العلماء.

ويقال: إن ابن دقيق هو أول من لقَّبه بسلطان العلماء.

٣ - الإمام الحافظ الأصولي، رشيد الدين بن العطار، أبو الحسين يحيى بن علي بن عبدالله القرشي المصري المالكي، توفي سنة ٦٦٢ هـ.

٤ - الإمام المسند أبو الحسن علي بن أحمد ابن عبد الواحد الفخر بن البخاري السَّعْدي المقدسي الصالحي الحنبلي.

طال عمُره، ورحل الطلبة إليه من البلاد، وألحق الأسباط بالأجداد في علوِّ الإسناد، وقد تفرد في الدنيا بالرواية العالية.

قال الذهبي: قال ابن تيمية: ينشرح صدري إذا أدخلتُ ابن البخاري بيني وبين النبي في حديث[١].

توفي سنة (٦٩٠ هـ).

أشهر تلامذته:

١ - الإمام العلامة، نجم الدين بن الرِّفعة، أحمد بن محمد بن علي بن مرتفع أبو العباس المصري الشافعي.

كان فقيهـًا وإمامـًا في علوم كثيرة، وقد أثنى عليه الإمام ابن دقيق،

(١) «العبر» للذهبي (٥/ ٣٦٨).

وكان يعظِّمه، ويقول له إذا خاطبه: يا فقيه. توفي سنة (٧١٠ هـ).

٢ - الإمام العلامة علاء الدين الباجي، علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطَّاب الباجي المغربي المصري.

إمام الأصوليين في زمانه، وكان الإمام ابن دقيق العيد يقول له: يا إمام، ويخصُّه بها. توفي سنة (٧١٤ هـ) .

٣ - الإمام العلامة تاج الدين الفاكهاني، أبو حفص عمر بن علي بن سالم بن عبد الله اللخمي الإسكندراني المالكي.

كان إمامًا متفننًا في الحديث والفقه والأصول، توفي سنة (٧٣١ هـ)

٤ - الإمام العلامة ابن سَيِّد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد أبو الفتح فتح الدين اليعمُري الشافعي.

لازم ابن دقيق، وتخرج عليه في أصول الفقه، وكان ابن دقيق يحبه ويؤثره، ويسمع كلامه ويثني عليه، ويركن إلى نقله.

قال عماد الدين بن القيسراني: كان ابن دقيق إذا حَضَرْنا درسه، وجاء ذكر أحد من الصحابة والرجال قال: أيش ترجمة هذا يا أبا الفتح؟ فيأخذ في الكلام ويسرد، والناس سكوت، والشيخ مُصْغٍ

إلى ما يقول، توفي سنة (٧٣٤ هـ)

٥ - الإمام الحافظ الأعجوبة، أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي الشافعي.

قال الذهبي: كان خاتمة الحفاظ، وناقد الأسانيد والألفاظ، وهو صاحب معضلاتِنا، وموضح مشكلاتنا، وكان محبـًا للآثار، معظمـًا لطريقة السلف.

صاحب «تهذيب الكمال»، توفي سنة (٧٤٢ هـ) .

٦ - الإمام الحافظ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي.

علامة زمانه في الرجال وأحوالهم، والقرآن والقراءات، والتاريخ، توفي سنة (٧٤٨ هـ).

وفاته:

وافته المنيَّة بالقاهرة، يوم الجمعة من شهر صفر سنة (٧٠٢ هـ).

ودفن من يوم السبت بسفح المُقَطَّم، وكان يومـًا مشهوداً، سارع الناس إليه، ووقف جيش ينتظر الصلاة عليه، ورثاه جماعةٌ من الفضلاء والأدباء.

متن الوصية[١]

لمّا تولى شيخُ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد قضاءَ القضاة بالدِّيار المصرية، كتب إلى نائبه ببعضِ البلاد بوصيَّةٍ،[٢] والكتابُ من إنشائه، بما صورتُه، وبمثله كَتَبَ إلى كلِّ نائب:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

صَدَرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، وفّقه اللّهُ لقَبول

---

(١) «نهاية الأرب في فنون الأدب»، للنويري ٣١/ ٣٠٢.
«حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» للسيوطي ٢/ ١٦٩.
«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري ٥/ ٣٧٨.
«نصيحة العلامة ابن دقيق العيد لأحد نوابه في القضاء»، اعتناء جمال عزون.
«رسالة شيخ الإسلام ابن دقيق العيد إلى نوّابه في القضاء» تحقيق عبد الرحمن حمّاد (بحث منشور في موقع الملتقى الفقهي) وعلى هذه المعتمد.

(٢) جاءت في نسخة الدكتور عزون، هذه العبارة: «ومن لطائفه ما كتب إلى نائبه بإِخْمِيْم»، وهي بلد مصرية على شاطئ النيل بالصعيد.

النصيحة، وآتاه لما هو به قَصْدًا صالحاً، ونيّة صحيحة.

أصدرناها إليه بعد حمد الله الذي ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[غافر: ١٩]، ويُمْهِل حتَّى يَلْتَبِس الإمهالُ بالإهمال على المَغْرور، تُذكِّره بأيَّام الله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[الحج : ٤٧]، وتُحَذِّرُه صَفْقَةَ مَن باع الآخرة بالدنيا، فما أحدٌ سواه مَغبون، عسى الله أنْ يُرشدَه بهذا التَّذْكار ويَنْفَعَه، وتَأخذَ هذه النصائحُ بحُجْزَتِهِ عن النار، فإنِّي أخاف أن يتردَّى فيخِرَّ من وَلاّهُ -والعياذ بالله- معه.

والموجب لإصدارها ما تلمّحْنَاه من الغَفْلة المُسْتَحكمة على القلوب، ومن تقاعُد الهِمَم عن القيام بما يجب للرب على المربوب، ومن أُنْسِهم بهذه الدار وهم مُزْعَجون عنها، وعِلْمِهم بما بَيْن أيديهم من عَقبة كؤود وهم لا يتخففون منها، ولاسيما القضاة الذين يحملون أعباءَ الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصُوَرٍ كبارٍ وهِمَمٍ نَحيفة.

ووالله إنّ الأمرَ لعظيم، و الخَطْبَ لجسيم، ولا أرى أنّ مع ذلك أَمْنًا ولا قرارًا ولا راحةً، اللّهم إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه، واتخذ إلهه هواه، وقَصر همّه وهمته على حظِّ نفسه ودنياه، فغايةُ مَطْلَبِه

حبُّ الجاه، والرغبة في قلوب الناس، وتحسينُ الزّي والمَلبس والركبة والمجلس؛ غيرَ مستشعرٍ خِسَّةَ حاله، ولا ركاكةَ مَقْصَدِه، وهذا لا كلامَ معه، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[الروم: ٥٢] ، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[فاطر: ٢٢].

فاتق الله ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾[الشعراء: ٢١٨]، وأَقْصِرْ أَمَلَك عليه، فإنّ المحروم مِنْ فَضْلِه غيرُ مَرْحوم.

وما أنا وأنتم أيّها النّفَر إلا كما قال حبيبٌ العجمي -وقد قال له قائل: ليتنا لم نُخْلَق- فقال: «قد وَقَعْتُمْ فاحتالوا».

وإنْ خَفِيَ عليكَ بعضُ هذا الخَطَر، وشَغَلتْك الدنيا أنْ تَقْضي مِن معرفته الوَطَر، فتأمل كلام النبوّة: «القضاةُ ثلاثة»؛ وقولَه ﷺ مُشفقا: «لا تأمّرن على اثنين، ولا تليّن مالَ يتيم».

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومَا أنَا والسَّيْرَ في مَتْلَفٍ يُبَرِّحُ بالذَّكَرِ الضَّابِطِ

هيهات! جفّ القلمُ، ونَفَذَ أمرُ الله، ولا رادّ لما حكم.

إيْه، ومن هنالك شمَّ الناسُ من فم الصدِّيق رضي الله عنه رائحةَ الكَبِد المشوي.

وقال الفاروق: ليت أمّ عمر لم تلده.

واستسلم عثمان، وقال: من أَغْمَدَ سيفَه فهو حُرّ.

وقال عليّ -والخزائنُ بين يَديه-: من يشتري منِّي سيفي هذا ؟ ولو وجدتُ ما أشتري به رداء ما بِعْتُه.

وقطع الخوفُ نِيَاطَ قلبِ عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العَرض.

وعلّق بعضُ السلف في بيته سوطاً يؤدِّب نفسَه إذا فَتَر.

فترى ذلك سُدًى، أمْ وَضَحَ أنّا نحنُ المقرّبون وهمُ البُعَداء؟!

وهذه أحوالٌ لا تُؤخذ من كتاب السّلم والإجارة والجنايات، نعم! إنما تُنال بالخشوع، وبأن تظمأ أو تجوع وتحمي عينيْك الهُجوع.

وممَّا يُعِينُكَ على الأمر الذي دعوتُ إليه، ويزوِّدُك في مسيرك إلى العرض عليه، أنْ تجعل لك وقتًا تَعْمُره بالفكر والتدبير، وآناءً تجعلُها معَدة لجلاء قلبك، فإنَّه إن استحكم صَدَاه صَعُب تلافيه، وأعرض عنه من هو أعلم بما فيه.

واجعلْ أكثرَ همومك الاستعداد للمعاد، والتأهب لجواب الملك الجواد، فإنه يقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[الحجر: ٩٢-٩٣].

ومهما وجدتَ من همَّتك قصورًا، واستشعرتَ من نفسك عمّا يذلِّلُها نفورًا، فاجأرْ إلى الله، وقِفْ ببابه واطلبْ منه، فإنه لا يُعرض عمّن صَدَق، ولا يَعْزُب عن علمه خفايا الضمائر ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

فهذه نصيحتي إليك، وحُجّتي بين يَدَي الله -إنْ فرّطتَ- عليك.

أسأل الله لي ولكَ قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا ونفسًا مطمئنةً، بمنِّه وكرمه وخفي لطفه، والسلام. انتهى.

شرح الوصية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

افتتح بالبسملة اقتداءً بكتاب الله تعالى، وبرسائل رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾.

قال الطبري: «يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله (قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ) يقول: علموا بعضكم بعضا ما تقون به من تعلمونه النار، وتدفعونها عنه إذا عمل به من طاعة الله، واعملوا بطاعة الله.

وقوله: (وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا) يقول: وعلموا أهليكم من العمل بطاعة الله ما يقون به أنفسهم من النار».

فبدأ بهذه الآية المباركة؛ لأن أفضل وصية هي تقوى الله تعالى، وهذا من براعة الاستهلال، فلما كانت الرسالة نصيحة لنوابه في القضاء، بدأها بخير بوصية وهي تقوى الله تعالى.

فالتناصح بالتقوى، وتعليم الناس ما يتقون به الله من أوامر

الشريعة.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «**بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**»[(١)].

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[(٢)].

والتقوى هي وصية الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾[النساء: ١٣١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي، قَالَ: «**عَلَيْكَ**

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥)

بِتَقْوَى اللهِ»[١] .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[٢]

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ «**أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ**»[٣].

والتقوى: هي امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، بفعل كلّ مأمور به وترك كلّ منهيّ عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٤٤٥ بسند حسن.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٨٧ بسند حسن.

(٣) أخرجه البخاري ٣٣٧٤.

صَدَرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس السامي (مخلص الدين)، وفّقه الله لقَبول النصيحة، وآتاه لما هو به قَصْدًا صالحاً، ونيّة صحيحة.

يُبيِّن وِجهة الرسالة، وأنها صدرت منه بخاصة إلى المجلس السامي مخلص الدين.

والمجلس: لقب من ألقاب التكريم والتشريف المستخدمة في هذا الوقت لأصحاب المناصب، ووصفه بالسمو والرفعة.

و«مخلص الدين» اسم القاضي الذي توجهت الرسالة له.

ثم يدعو له بالتوفيق وصلاح القصد وصحة النية.

وهنا أمر مهم جدا: وهو استعمال الألفاظ اللينة والأساليب اللطيفة في النصح، كي لا ينفر المنصوح أو يستشعر الحرج ، أو يستكبر.

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا

لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[طه: ٤٣-٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾[مريم: ٤١-٤٥].

فلم يجابه أباه بما يكرهه من الألفاظ، فلم يقل: أنت كافر، ولم يقل: أنت جاهل وأنا عالم، وإنما ناداه بالأبوة، وقال: جائني علم لم يأتك، وبيّن له الخوف والحرص على نجاته من النار.

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِي يَوْمًا فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّكَ**» ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَنَا وَاللهِ أُحِبُّكَ، فَقَالَ: « **أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[1].

فبدأ النبي وصيته لمعاذ، بقسمه له بأنه يحبه، وهذا أدعى لقبول

(١) أخرجه أبو داود ١٥٢٢ بسند صحيح.

النصيحة والعمل بها.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ**»[1].

والنصوص في ذلك كثيرة جدا، وبهذا يتبين خطأ البعض في استعمال اللفظ الشديد في النصح، أو في بيان بعض الأخطاء أو الأوهام غير المقصودة لأهل العلم والفضل.

ومن جميل الذكر، أن نذكر شيئا من رسائل شيخ الإسلام التي أرسلها ناصحا بها بعضًا ممن تلبسوا ببدع شنيعة، فقد كان مقصده هو بيان الحق واتباعه لا هدم الرجال، ولذلك خلت كتبه من السب والشتم، لانه كان حريصًا على إظهار الحق، وعلى ألا يتعصب الناس بالباطل لشيخهم إذا ذُكر بسوء.

أرسل شيخ الإسلام رسالة إلى أبي نصر المنبجي -وكان معظما لابن عربي- فبدأ الرسالة بأسلوب حسن، ثم بيَّن له البدع الشنيعة التي تلبس بها ابن عربي، دون سب أو قذف أو انحطاط خلقي، فقال:

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٢٦.

بسم الله الرحمن الرحيم، من أحمد ابن تيمية: إلى الشيخ العارف القدوة السالك الناسك أبي الفتح نصر فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح به على قلوب أوليائه ونصره على شياطين الإنس والجن في جهره وإخفائه ونهج به الطريقة المحمدية الموافقة لشرعته وكشف به الحقيقة الدينية المميزة بين خلقه وطاعته وإرادته ومحبته؛ حتى يظهر للناس الفرق بين الكلمات الكونية والكلمات الدينية وبين المؤمنين الصادقين الصالحين ومن تشبه بهم من المنافقين كما فرق الله بينهما في كتابه وسنته.

أما بعد، فإن الله تعالى قد أنعم على الشيخ وأنعم به نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا وجعل له عند خاصة المسلمين - الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا - منزلة علية ومودة إلهية؛ لما منحه الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد فإن العلم والإرادة أصل لطريق الهدى والعبادة...»[1].

(١) انظر الرسالة بتمامها في مجموع الفتاوى ٢ / ٤٥٢.

أصدرناها إليه بعد حمد الله الذي ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩]، ويُمْهِل حتَّى يَلْتَبِس الإمهالُ بالإهمال على المَغْرور.

تُذكِّره بأيَّام الله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[الحج: ٤٧].

يقول: كتبنا هذه الرسالة بعد حمد لله تعالى، وكأنه حمد الله تعالى بلسانه ثم كتب الرسالة.

ثم وعظه بأسلوب لطيف بطريقة غير مباشرة؛ كي يمهدَ قلبَه لاستقبال ما سيأتي من النصائح.

فبدأ موعظته بتذكيره بصفات الله تعالى، وهذا من حكمته وعلمه.

فالعبد كلما ازداد علمًا بالله تعالى، ازداد خوفًا ومحبةً لله تعالى، ولذلك قال ابن القيم: «من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة»[(١)].

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٨.

فقال: «الله الذي ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾»

يذكره بإحاطة علم الله ومراقبته لخلقه، فالعبد إذا علم أن الله مطلع عليه، عليم بكل أفعاله وأحواله؛ أورثه ذلك الخوف والحياء من الله، ويحمله ذلك على تحمل الطاعات وترك المعاصي والذنوب.

وجاء بهذه الآية خاصة وترك غيرها من الآيات الدالة على علم الله وإحاطته وسمعه وبصره؛ لأن الآية تخاطب من يراقب الناس لشرفه ووجاهته وخوفه على سمعته ويغفل عن مراقبة الله الدائمة.

قَالَ الْخطابِيّ: «هُوَ أَن يضمر فِي قلبه غير مَا يظهره للنَّاس فَإِذا كف لِسَانه وَأَوْمَأَ بِعَيْنِه إِلَى ذَلِك فقد خَان وَقد كَانَ ظُهُور تِلْكَ الْخِيَانَة من قبيل عينه فسميت خَائِنَة الْأَعْين»[(١)].

ومثالها ما قاله ابن عباس: «هو الرجُل يكون في القوم فتمرُّ به المرأة فيُريهم أنه يغُضُّ بصره، فإذا رأى منهم غفلةً لَحَظَ إليها»[(٢) (٣)].

---

(١) حاشية السندي على سنن النسائي ٧ / ١٠٦.

(٢) فتح الباري (١١/ ١١).

(٣) ومن خصائص الأنبياء ألا تكون لهم خائنا أعين على الإطلاق، حتى في الأمور المباحة، ودليله ما أخرجه أبو داود ٤٠٦٧ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ:

والخائن هو الذي خان ما جُعل عليه أمينًا، فأراد أن يذكره بألا يكون من الخائنين، لا سيما وأن الله قد أتاه منصبًا يستلزم الأمانة والعدل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، أيْ يعلم ما تنطوي عليه الضمائر والقلوب.

ثم قال: «**ويُمْهِل حتَّى يَلْتَبِسَ الإمهالُ بالإهمال على المَغْرور**».

الله سبحانه وتعالى (**يُمهل**) عباده فيؤجل عقوبة المُذنب، ويعطيه مُهلة ليتوب ويرجع، وهذا معنى اسم الله الحليم، فيحلم عن مقابلة

«اقْتُلُوهُمْ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ»... وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ، فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَايِعْ عَبْدَ اللهِ، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ يَأْبَى، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ» فَقَالُوا: وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَا فِي نَفْسِكَ، هَلَّا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ».

قال ابن حجر: «وأما خائنة الأعين التي ذكرت في الخصائص النبوية فهي الإشارة بالعين إلى أمر مباح» فتح الباري ١١/ ٩.

العاصين بعصيانهم، والكافرين بكفرهم، كي يتوبوا ويستغفروا.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[النحل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾[فاطر: ٤٥]

وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف: ٥٨].

وعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١).

ومن كمال حلمه سبحانه أنه يرزق ويعافي من يسبونه ليل نهار، ويعادون أوليائه، ويصدون عن سبيله.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٥٩.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَيْسَ أَحَدٌ، أَوْ: لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»[(١)].

ولكن المغرور هو من يغتر بحلم الله تعالى فيركن إلى شهواته وملذاته، فـ (**يَلْتَبِس الإمهالُ بالإهمال**)، أي يظن إمهالَ الله له إهمالًا.

ولذلك قال بعدها مباشرة: «**تُذكِّره بأيَّام الله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾**».

وأيَّام الله؛ هي الوقائع والأحداث التي أنعم الله تعالى فيها على قوم فاغتروا وتكبروا وعصوا، فأتاهم عذاب الله تعالى لظلمهم، كعاد وثمود وفرعون وقارون وقوم سبأ وغيرهم ممن اغتروا بحلم الله ولم يتبعوا الرسل.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾[الحج: ٤٧-٤٨].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٤٨، ومسلم ٢٨٠٤.

قال الطبري: «إن الله تعالى ذكره أخبر عن استعجال المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعذاب، ثم أخبر عن مبلغ قدر اليوم عنده، ثم أتبع ذلك قوله: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) فأخبر عن إملائه أهل القرية الظالمة، تركه معاجلتهم بالعذاب، فبين بذلك أنه عنى بقوله: (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) نفي العجلة عن نفسه، ووصفها بالأناة والانتظار، وإذ كان ذلك كذلك، كان تأويل الكلام: وإن يوما من الأيام التي عند الله يوم القيامة، يوم واحد كألف سنة من عددكم، وليس ذلك عنده ببعيد، وهو عندكم بعيد، فلذلك لا يعجل بعقوبة من أراد عقوبته حتى يبلغ غاية مدّته»[(١)].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾[غافر: ٢١].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦٥٩.

يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[الروم: ٩].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾[فاطر: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

[العنكبوت: ٣٨-٤٠].

فقوله: «تُذكِّره بأيَّام الله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، يؤكد على ما سبقه من ترك الغرور بحلم الله.

وتُحَذِّرُه صَفْقَةَ مَن باع الآخرة بالدنيا، فما أحدٌ سواه مَغبون.

يُحَذّره ويُخَوفه من التجارة الخاسرة، وهي صفقة من باع الآخرة بالدنيا، ويرغبه في التجارة الرابحة، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[فاطر: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[الصف: ١٠-١١].

«فما أحدٌ سواه مَغبون»

المغبون: من الغَبْن؛ وهي كلمة تدل على ضعف واهتضام وخسارة[(١)].

يقال: لِمَنْ باع شيئًا ثمينًا نفيسًا ذا قيمة، وأخذ بدله شيئًا تافهًا

(١) مقاييس اللغة، مادة غبن ٤/ ٤١١.

لا قيمة له: مغبون.

ويقال: رجل غبين ومغبون في الرأي والعقل والدين.

ومن أسماء يوم القيامة التغابن: وهو أن يغبن القوم بعضهم بعضا.

قيل: سمي بذلك لأن أهل الجنة يغبن فيه أهل النار بما يصير إليه أهل الجنة من النعيم ويلقى فيه أهل النار من العذاب الجحيم، ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته.(١)

وسئل الحسن عن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[التغابن: ٩]؛ فقال: «غبن أهل الجنة أهل النار».

أي استنقصوا عقولهم باختيارهم الكفر على الإيمان(٢).

فالمغبون هو من باع آخرته بدنياه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾[البقرة: ١٦]

(١) تفسير الطبري ٢٣ / ٤٢٠.

(٢) لسان العرب مادة غبن ١٣ / ٣١٠.

عسى اللهُ أنْ يُرشدَه بهذا التَّذْكار ويَنْفَعَه، وتَأخذَ هذه النصائحُ بحُجْزَتِهِ عن النار.

(**عسى**): فعل يفيد الرجاء في المحبوب، والإشفاق في المكروه، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾[البقرة: ٢١٦][(١)].

فهو يرجو الله أن يرشده بهذه التذكرة وتنفعه، وتأخذ بحجزته عن النار.

والحُجزة: هِي مَعْقدُ السَّرَاوِيل والإزار.

ومنه ما في الصحيحين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ**»[(٢)].

قا النووي: «مقصود الحديث أنه صلى الله عليه وسلم شبه

---

(١) مغني اللبيب، ص ٢٠٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٨٣، ومسلم ٢٢٨٤.

تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم على الوقوع في ذلك، مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله»[1].

(١) شرح النووي على مسلم ١٥/ ٥٠.

فإنِّي أخاف أن يتردَّى فيخِرَّ من وَلاّهُ -والعياذ بالله- معه.

يُبين سبب كتابة النصيحة، وهو خوفه من ظلم نائبه فيؤاخذه الله تعالى بظلم نائبه، ولذلك بدأ الرسالة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[التحريم: ٦].

ولحديث مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»[(١)].

فكل من ولاه الله أمرا فعليه أن يأخذ بحجُز من تحته عن النار، وعلى هذا سنة الخلفاء وغيرهم من الأمراء؛ لأن الناس تبع لهم.

قال ابن عبد البر: «من استرعاه الله رعية لزمه أن يحوطها بالنصيحة، ولا نصيحة تقدم على النصيحة في الدين»[(٢)].

والتردي: هو السقوط من مكان عالٍ، يقال «تَرَدّى من الجبل» أي سقط من أعلاه.

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٥٠، ومسلم ١٤٢.

(٢) الاستذكار ١/ ٤٨.

والموجب لإصدارها ما تلمّحْنَاه من الغَفْلة المُسْتَحكمة على القلوب، ومن تقاعُد الهِمَم عن القيام بما يجب للرب على المربوب، ومن أُنْسِهم بهذه الدار وهم مُزْعَجون عنها، وعِلْمِهم بما بَيْن أيديهم من عَقبة كؤود وهم لا يتخففون منها.

يذكر هنا ما أوجب عليه إصدار هذه النصيحة، والتي منشؤها قول النبي: «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**».

فأسباب إصداره لها ثلاثة أمور مترتبة على بعضها:

١- ما تلمّحْنَاه من الغَفْلة المُسْتَحكمة على القلوب.

والغفلة: هي السّهو عن الشّيء، يقال: أغفل الشّيء، أي: تركه وسها عنه.(١)

والمقصد هنا الغفلة عن تقوى الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: ١].

---

(١) لسان العرب، مادة غفل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[الكهف: ٢٨].

فبدأ بالغفلة والتحذير منها، لأن الغفلة سبب لضعف الهمة، فقال:

٢- ومن تقاعُد الهِمَم مما يجب للرب على المربوب.

أي أنَّ الهمم ضعيفة ومتقاعدة، ليست عاليةً ساعيةً إلى نَيْل رضوان الله – سبحانه وتعالى-.

وضعف الهمة هو: هو ضعف النّفس عن طلب المراتب العالية، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات، واستكثار اليسير من الفضائل، واستعظام القليل من العطايا والاعتداد به، والرّضا بأوساط الأمور وأصاغرها.[١]

وعالي الهمة: هو من لا يرضى بالهمم الحيوانيّة قدر وسعه، بل يجتهد أن يتخصّص بمكارم الشّريعة فيصير من خلفاء الله وأوليائه

(١) تهذيب الأخلاق للجاحظ، ص ٣٤.

في الدّنيا ومجاوريه في الآخرة[١].

وضعف الهمة سببه الكسل، والكسل هو التّثاقل عمّا لا ينبغي أن يُتثاقل عنه[٢]، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾[النساء: ١٤٢].

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[التوبة: ٥٤]

ولذلك كان النبي – عليه الصلاة والسلام – يتعوذ بالله من العجز والكسل، فيقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ**[٣] **وَالْكَسَلِ**»[٤].

وعاتب الله تعالى بعض المؤمنين الذين ضعفت همتهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾[التوبة: ٣٨].

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (٢٩١).

(٢) تهذيب اللغة (١٠/ ٦٠، ٦١)، التوقيف (٢٨١).

(٣) العجز: هو عدم القدرة على فِعْل الخير.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، و مسلم (٢٧٠٦) عن أنس.

ثم عاقبة الكسل عن المعالي هي ما ذكره في قوله:

٣- **أُنْسِهم بهذه الدار.**

وهذا هو طول الأمل: وهو الاستمرار في الحرص على الدّنيا والانكباب عليها مع الإعراض عن الآخرة.

وهذا من الجهل، فالناس مرتحلون عن الدنيا، فينبغي أن يستوحشوا منها، فهم فيها غرباء، لا يجدون فيها الأُنس، وإنما الأنس في العمل للدار الآخرة، وبما يُقَرّب إلى الله تعالى.

ثم تعجب لأُنس البعض بالدنيا، رغم أمرين، فقال: **وهم مُزْعَجون عنها، وعِلْمِهم بما بَيْن أيديهم من عَقبة كؤود وهم لا يتخففون منها.**

١- (**وهم مزْعَجون عنها**): الإزعاج عن الشيء أي الاستعجال لتَرْكه والطرد عنه والإبعاد عنه.

أي أنهم يُستعجَلون لتَرْكها بالتنغيص عليهم، بما يُقَدّر في هذه الدنيا على أهلها من المصائب والأقدار، وما يرونه من الموتى ورحيلهم عن الدنيا.

روي أن المسيح عيسى عليه السلام قال: «من ذا الّذي يبني على

موج البحر دارا؟ تلكم الدّنيا فلا تتّخذوها قرارا»[١] .

وعنْ ابن مسعود، قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَالِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**» [٢].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[٣].

٢- عِلْمِهم بما بَيْن أيديهم من عَقبة كؤود وهم لا يتخففون منها.

(**يتخففون منها**)، أي من الدنيا.

فهم يعلمون أنهم ميتون لا محالة، وأن أعمالهم مسجلة عليهم

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣٣٢) .

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٧٧ بسند صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

وهم لا يتخففون من الأحمال الثقيلة التي يحملونها.

فشَبّه الناس بسائرين في طريق سفر، وأمامهم عقبة (كؤود)؛ أي مرتفعة صعب الصعود عليها، فلا يستطيعون صعود هذا المرتفع الذي لا بد لهم أن يصعدوه، ولا يريدون التخفف من هذه الأحمال الثقيلة.

وهو يريد بذلك الموت وما بعده.

فكيف يأنس الإنسان بالدنيا، ويذر وراءه يوما ثقيلا.

الناس يعلمون حقائق المصير، ويغفلون عن عوائق التقصير.

رضوا بالزاد بالقليل، رغم طول المسير.

كان خليد البصري يقول: «كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعدا، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملا، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفا، فعلام تعرجون وماذا عسيتم تنتظرون، فهذا الموت أول وارد عليكم من الله بخير أو بشر. فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيرا جميلا»[1].

(١) التبصرة لابن الجوزي، ١٧٩.

ولاسيما القضاة الذين يحملون أعباءَ الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصُوَرٍ كبارٍ وهِمَمٍ نَحيفة، ووالله إنّ الأمرَ لعظيم، و الخَطْبَ لجسيم.

(**ولاسيما القضاة**) أي: وأخص القضاة بهذه النصيحة.

واختص القضاة بالذات، لأن الرسالة لقاضٍ، ولأن القضاء أمانة عظيمة، ويحتاج إلى إمكانات خاصة، ولذلك هرب كثير من السلف من القضاء خوفا من عِظم الأمانة.

فعن إبراهيم بن مهدي قال: سمعت حفص بن غياث، وهو قاض يقول لرجل يسأل عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضيـًا، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينه فيقتلعها فيرمي بها خير له من أن يكون قاضيـًا[1].

وعن عبيد الله بن عمرو الرقي قال: كلم ابن هبيرة أبا حنيفة أن يلي له قضاء الكوفة، فأبى عليه فضربه مائة سوط وعشرة أسواط في كل يوم عشرة أسواط، وهو على الامتناع فلما رأى ذلك خلي

(١) تاريخ بغداد(٨/ ١٩٠).

سبيله[١].

وعن الربيع بن يونس قال: رأيت أمير المؤمنين المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، وهو يقول اتق الله ولا تُرعيَّ أمانتك إلا من يخاف الله، و الله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب، ولو اتجه الحكم عليَّ ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو أن أَلِي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، فلا أصلح لذلك فقال له: كذبت أنت تصلح فقال: قد حكمت لي علي نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب[٢].

ولذلك قال: «**الذين يحملون أعباءَ الأمانة على كواهل ضعيفة**» أي أمانة الحكم بين الناس بالعدل أكبر منهم وهم ضعفاء لا يطيقون حملها.

(**وظهروا بصُوَرٍ كبارٍ وهي نَحيفة**)، أي لهم جاه عند الناس وتفخيم وتعظيم، والناس يغبطونهم على مكانتهم، وهم في حقيقة الأمر ليسوا كذلك.

---

(١) تاريخ بغداد(١٣/ ٣٢٦).

(٢) تاريخ بغداد(١٣/ ٣٢٨).

ثم يقسم بالله أن الأمر ليس هينا، بل إنه أمر عظيم وجسيم.

ولا أرى أنّ مع ذلك أَمْنًا ولا قرارًا ولا راحةً، اللّهم إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه، واتخذ إلهه هواه، وقَصر همّه وهمته على حظِّ نفسه ودنياه، فغايةُ مَطْلَبِه حبُّ الجاه، والرغبة في قلوب الناس، وتحسينُ الزّي والمَلبس والركبة والمجلس؛ غيرَ مستشعرٍ خِسَّةَ حاله، ولا ركاكةَ مَقْصَدِه، وهذا لا كلامَ معه، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[الروم: ٥٢] ، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[فاطر: ٢٢].

كلامه هذا يشهد له قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[ق: ٣٧].

فصاحب القلب الوجل الخائف من الله، سيعلم خطورة الأمر، وأما من اتخذ إلهه هواه وطال أمله وضعفت همته فهو كالميت لا يسمع.

وخلاصة كلامه: أن هذه الدنيا ليس فيها أمن ولا قرار ولا راحة لِمَنْ كان يخاف الآخرة ويسعى لها، وكأنه يشير إلى قول الله سبحانه

وتعالى في الحديث القدسي: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ: إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)].

فمَنْ كان يخاف الله تعالى ويستعد للدار الآخرة فينبغي أن يكون في قلق وخوف من لقاء الله سبحانه وتعالى، ولا يطمئن إلى الدنيا ولا يرتاح فيها.

وأما الذي يأمن للدنيا ويستقر فيها ويرتاح فهذا رجل نَبَذ الآخرة وراءه (**واتخذ إلهه هواه، وقَصر همّه وهمته على حظِّ نفسه ودنياه**) فصارت همته همة الحيوانات، غايته في الأكل والشرب والشهوات والملذات.

(**غيرَ مستشعرٍ خَساسةَ حاله، ولا ركاكةَ تقَصُّدِه**)

فهو في غفلة، يظن أنه على الهدى والصواب، ولا تنفعه المواعظ ولا المشاهدات، فحاله كالميت في قبره.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٦٤٠، وصححه الألباني في الصحيحة ٧٤٢.

فاتق الله ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾[الشعراء: ٢١٨]، وأَقْصِرْ أَمَلَك عليه، فإنّ المحروم مِنْ فَضْلِه غيرُ مَرْحوم.

يأمره بتقوى الله، ويذكره بمراقبة الله تعالى؛ لأنها سبيل التقوى والإحسان.

ويوصيه بتقصير الأمل، فلا يُؤمِّل في الدنيا أكثر من حدود أجله.

«**وأَقْصِرْ أَمَلَك عليه**» اجعل آمالك في الآخرة، متعلقة بما عند الله تعالى، وهذا هو علاج طول الأمل.

فالعلاج هو اليأس من الدنيا والرغبة فيما عند الله، وقد سبق عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[(١)].

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

وما أنا وأنتم أيّها النّفَر إلا كما قال حبيبٌ العجمي -وقد قال له قائل: ليتنا لم نُخْلَق- فقال: «قد وَقَعْتُمْ فاحتالوا».

أَبُو مُحَمَّدٍ، حَبِيب الْعَجَمِيُّ الْبَصْرِيُّ الزَّاهِدُ، زاهد أهل البصرة وعابدها.

قال أبو نعيم: كان حبيب صاحب الكرامات مجاب الدعوة، كان سبب زهده حضوره مجلس الحسن فوقعت موعظته في قلبه فخرج عما كان يتصرف فيه فتصدق بأربعين ألفا[١].

قال سليمان التيمي: ما رأيت أصدق يقينا من حبيب أبي محمد[٢].

قوله: (**ليتنا لم نُخْلَق**). ليت: حرف تمن يتعلق بالمستحيل غالبا، كقول القائل:

فياليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب[٣]

---

(١) تاريخ الإسلام ٣/ ٦٢٧.

(٢) السابق.

(٣) مغني اللبيب، ص ٣٧٥.

«**قد وَقَعْتُمْ فاحتالوا**»: شبههم بمن يقع في حفرة عميقة، وعليه الخروج منها بسلام دون أن يؤذي نفسه.

والمعنى: أن التمني لا ينفعكم شيئـًا، فقد خُلِقتم وانتهى الأمر، فابحثوا عن حيلة خَلّصوا بها أنفسكم.

وإنْ خَفِيَ عليكَ بعضُ هذا الخَطَر، وشَغَلتْك الدنيا أنْ تَقْضي مِن معرفته الوَطَر، فتأمل كلام النبوّة: «القضاةُ ثلاثة»؛ وقولَه ﷺ مُشفقا: «لا تأمّرن على اثنين، ولا تليّن مالَ يتيم».

(الوَطَر) هو الهدف والقصد.

فبعد أن ذكره بمراقبة الله تعالى، وبالدار الآخرة، أراد أن يعلمه خطورة القضاء، فذكر له حديثين:

الأول: عَنِ بُرَيْدَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ**» [(١)].

فالذي عَلِم الحق وقضى به، فهو في الجنة

والجاهل الذي لم يعرف حكم الله وقضى، فهو في النار.

والذي علم الحق وقضى بغيره، فهو في النار.

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٥٧٣، وابن ماجه ٢٣١٥، بسند صحيح.

الثاني: عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ**»(١).

أشفق النبي ﷺ على أبي ذر أن يتولى القضاء أو الولاية؛ لأنها أمانة عظيمة .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[المائدة: ٤٢].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[الجن: ١٥].

والقاسطون هم الظالمون الجائرون.(٣)

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٢٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٢٧.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٦٦١.

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

معنى قول: «لا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله» : «لا تَحوُّلَ للعبد مِنْ حال إلى حال، ولا قُوَّة له على ذلك إلا بالله»[١] .

ولعله جاء بها في حديثه عن خطورة القضاء؛ لكي يرشده إلى الاستعانة بالله دائما وأبدا في كل حال، لأن العبد عاجز عن تحقيق مصالحه الدنيوية والأخروية إلا بتوفيق من الله، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول.

والمناصب أمانة عظيمة وفتنة ومظنة هلاك، ولا طاقة للعبد للعمل بما يرضي الله إلا بتوفيق الله.

ولذلك، فإن الإمام ابن دقيق كان موفقًا في حكمه وقضائه، فقد ذكر أهل التراجم، أنه سنة ٦٩٧هـ - أراد نائب السلطان على مصر، واسمه «منكوتمر» -وكان قويا حازما- أن يستخلص من ابن دقيق العيد حكماً في قضية ميراث لأحد أصحابه بغير بيّنة شرعية، فبعث إلى ابن دقيق العيد يعلمه أن تاجراً قد مات وترك أخاً ولم يخلف

(١) جامع العلوم والحكم، ٢/ ٥٧٣.

غيره ممن يرثه، وأراد أن يثبت استحقاقه الإرث بمجرد هذا الإخبار عنه.

فَلم يُوَافق قَاضِي الْقُضَاة على ذَلِك، ولم يأخذ بشهادته، فأرسل نائب السلطان أحد الأمراء إلى الإمام ابن دقيق، ليقنعه بالقضاء بناء على شهادة نائب السلطان، فقال الإمام: (وماذا يَنْبَنِي على شَهَادَة منكوتمر) فقال له: (يَا سَيِّدي مَا هُوَ عنْدكُمْ عدل) فقال: (سبحان الله) ثم أنشد:

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ ومنْ أنتمُ حتى يكونَ لكم عِنْدُ؟

وكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال: (والله متى لم تقم عندي بيّنة شرعية ثبتت عندي وإلاّ فلا حكمت له بشيء باسم الله).

فرجع الأمير إلى منكوتمر، وأخبره برفض الإمام، واقترح عليه أن يجتمع معه.

فلما اجتمع الحُجّاب على الإمام ابن دقيق ليدخل على الأمير، فَلم يلْتَفت إِلَى أحد مِنْهُم، فَلَمَّا ألحوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُم: «قُولُوا لَهُ مَا وجبت طَاعَتك عَليّ» والتفت إِلَى من مَعَه من الْقُضَاة وَقَالَ: «أشهدكم أَنِّي عزلت نَفسِي باسم الله، قُولُوا لَهُ يول غَيْرِي».

وَعَاد إِلَى دَاره وأغلق بَابه وَبعث نقباءه إِلَى النواب فِي الحكم وعقاد الْأَنْكِحَة يمنعهُم من الحكم وَعقد الْأَنْكِحَة.

فَلَمَّا بلغ السُّلْطَان ذَلِك أنكر على منكوتمر، وَبعث إِلَى الإمام ابن دقيق يعْتَذر إِلَيْهِ ويستدعيه فَأبى وَاعْتذر عَن طلوعه، وَمَا برح السُّلْطَان يتلطف بِهِ حَتَّى قبل الْولَايَة وعاد للقضاء.[1]

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، ٢/ ٢٩٣.

ومَا أنَا والسَّيْرَ في مَتْلَفٍ يُبَرِّحُ بالذَّكَرِ الضَّابِطِ[١]

هيهات! جفّ القلمُ، ونَفَذَ أمرُ الله، ولا رادّ لما حكم.

البيت لأسامة بن الحارث بن حبيب الهذلي، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، ويكنى بأبي سهم، وذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة»[٢]، والبيت من الشواهد الشعرية التي يستدل بها علماء النحو كسيبويه وغيره، وهو على بحر المتقارب.

(مَتْلَفٍ) هو المكان القفر الذي يتلف فيه من سلكه.

(يُبَرِّحُ) التبريح: الإجهاد والمشقة، يقال: برّح به: إذا جهده.

(الذّكر) أراد الذكر من الإبل؛ لأنه أقوى على السير من الناقة.

(الضابط) القوي.

ومناسبة البيت: أن أصحابه سافروا إلى الشام ومصر، وأرادوا منه النهوض معهم، فأبى، وقال هذا الشعر.

---

(١) ديوان الهذليين (٢/ ١٩٥)، ويروى «يعبِّر بالذَّكَر الضّابِط»، أي: يحمله على ما يكره، يقال: عبّر بعينه إذا أراه ما يكره.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٣٣٨).

وقوله: «**فما أنا والسير**» يسفه نفسه، وينكر عليها السفر في مثل هذا المتلف، الذي يهلك الإبل القوية، فكيف بحاله[١].

فاستدل الإمام رحمه الله بهذا البيت على حاله مع القضاء، ليؤكد على خطورته وضرورة الحذر، وأن يكون أهلاً لتحمّل هذه الأمانة.[٢]

ثم يستدرك على نفسه ويقول: (**هيهات!، جفّ القلمُ، ونَفَذَ حُكم الله**).

(**هيهات**) معناه البعد عن المطلوب واليأس منه.

(**جفّ القلمُ، ونَفَذَ حُكم الله**)، يشير إلى حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا**

---

(١) الحلل في شرح أبيات الجمل، لابن السِّيد البَطَلْيَوسي، ص ٧٠.

(٢) إنْ تولى القضاء من الصالحين مثل الإمام ابن دقيق العيد – رحمه الله – وأمثاله فَهُم يوازنون، رغم علمهم بخطر القضاء وعِظَم المسئولية بين يدي الله تعالى، لكن إذا وجد العالم أنه إذا لم يتول هذا المنصب تولاه مَنْ يظلم الناس ويقضي بالباطل والجهل، ووجد أنه لا يوجد مَنْ يسد مكانه فإذا قبله بهذه النيّة يكون مأجوراً إن شاء الله.
وبالجُملة فكل إمارة ومنصب من هذا الباب، إذا كان المرء يجد مَنْ هو أصلح منه وأَوْلَى منه من أهل الخير والصلاح فالمشروع أن يزهد فيه، لكن إذا وجد أنه إذا لم يتوله تولاه مَنْ يُفسِد ويظلم، فتولاه بقصد الإصلاح فيكون إن شاء الله مأجوراً بهذه النية.

هُرَيْرَةَ جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنْتَ لاَقٍ»[١].

وبنفس المعنى حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: **يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**[٢].

(**جفّ القلمُ**) قال ابن رجب: «كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فُرِغَ من كتابته، ورفعت الأقلام عنه، وطال عهده، فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها، وجفت الصحيفة التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها»[٣].

فهو يؤكد على مقولة حبيب العجمي التي ذكرها من قبل: «**قد**

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، بإسناد صحيح.

(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ٥٧٣.

وَقَعْتُمْ فاحتالوا».

وسيبدأ في ذكر أحوال الصالحين الذي نجوا وفازوا، ليقتدي بهم من كان يريد النجاة والفوز.

إيْه، ومن هنالك شمَّ الناسُ من فم الصدِّيق ﷺ رائحةَ الكَبِد المشوي.

وقال الفاروق: ليت أمّ عمر لم تلده.

واستسلم عثمان، وقال: من أَغْمَدَ سيفَه فهو حُرّ.

وقال عليّ -والخزائنُ بين يَديه-: من يشتري منِّي سيفي هذا ؟ ولو وجدتُ ما أشتري به رداء ما بِعْتُه.

وقطع الخوفُ نِيَاطَ قلبِ عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العَرض.

وعلّق بعضُ السلف في بيته سوطاً يؤدِّب نفسَه إذا فَتَر.

فترى ذلك سُدًى، أمْ وَضَحَ أنّا نحنُ المقرّبون وهمُ البُعَداء؟!

قوله: «إِيْهِ» اسم فعل أمر مبني على الكسر، وهي كلمة للاستزادة من حديث أو عمل معهودين.

وكأنه رحمه الله يخاطب نفسه ويعظها، فكأنه لما قرر بجفاف

الأقلام، ثارت نفسه قائلة: فما السبيل للنجاة، زد الكلام ولا تتوقف.

فذكر صور الخوف والورع عند الصحابة، لكي تعرف النفس سبيل النجاة، فقال: (**ومن هنالك شمَّ الناسُ من فم الصدِّيق رائحةَ الكَبِد المشوي**)[١].

(**وقال الفاروق: ليت أمّ عمر لم تلده**)[٢].

وهذه الكلمة قد وردت عن عدد من الصحابة، قالوها من شدة خوفهم من الله تعالى مع بذلهم ما في وسعهم من الطاعات.

ولذلك فإن عمر -وهو أحد العشرة- لم يمنعه ضمان الجنة من الخوف والرجاء.

قال عبد الله ابن عامر بن ربيعة: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض، فقال: «يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكن شيئا، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسيا منسيا».

قال ابن عمر: « كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات

---

(١) لم نقف على هذا الأثر مسندا فيما بين أيدينا من الكتب، وقد ورد في بعض الكتب بصيغة التمريض بلا سند.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات»(٣/ ٣٦٠،٣٦١)، وابن المبارك في «الزهد»(٢٣٤).

فيه، فقال لي: ضع رأسي، قال: فوضعته على الأرض، فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي».

وقال المسور بن مخرمة: لما طعن عمر، قال: «لو أن لي طلاع الأرض ذهبا، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه».

وبكى أبو هريرة في مرضه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي على بعد سفري وقلة زادي، وإني أمسيت في صعود على جنة أو نار، لا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي».

وقال عبد الله بن مسعود: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه جالس في أصل جبل يخشى أن ينقلب عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا»[1].

قال: «**واستسلم عثمان، وقال: من أَغْمَدَ سيفَه فهو حُرّ**».

يشير إلى ورع عثمان، وخوفه من أن يلقى الله بدم امرئ مسلم في يوم قتله.

قال ابن كثير: «كان الحصار مستمرا من أواخر ذي القعدة إلى

---

(١) شرح السنة للبغوي ١٤ / ٣٧٣.

يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة، فلما كان قبل ذلك بيوم، قال عثمان للذين عنده في الدار من المهاجرين والأنصار- وكانوا قريبا من سبعمائة، فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومروان وأبو هريرة، وخلق من مواليه، ولو تركهم لمنعوه فقال لهم: أقسم على من لي عليه حق أن يكف يده وأن ينطلق إلى منزله، وعنده من أعيان الصحابة وأبنائهم جم غفير، وقال لرقيقه: من أغمد سيفه فهو حر. فبرد القتال من داخل، وحمي من خارج، واشتد الأمر، وكان سبب ذلك أن عثمان رأى في المنام رؤيا دلت على اقتراب أجله فاستسلم لأمر الله رجاء موعوده، وشوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليكون خير ابني آدم حيث قال حين أراد أخوه قتله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾[المائدة: ٢٩]»[(١)].

(وقال عليّ رضي الله عنه والخزائنُ بين يَديه: مَنْ يشتري منِّي سيفي هذا؟، ولو وجدتُ ما أشتري به رداء ما بِعْتُه)[(٢)].

علي رضي الله عنه لخوفه وأمانته في ما يتعلق بأموال المسلمين ومال

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٨٢.

(٢) السابق ٨/ ٣.

الدولة، لم يجد رداءً له، فباع سيفه ليشتري رداء، وهو بيده مفاتيح خزائن أموال الدولة، وبيت المال مملوء ذهبًا وفضة، وهذا لكمال أمانته.

قال: (**وقطع الخوفُ نِيَاطَ قلبِ عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العَرض.**).

ونياط القلب: عرق غليظ نِيط به القلب إلى الوتين.

والوتين: هو العرق الذي يتعلق به القلب.

وقد ورد أن العلة التي مات بها عمر بن عبد العزيز – رحمه الله هي شدة خوفه من الله تعالى، فانقطعت نياط قلبه من خشية العرض على الله – سبحانه وتعالى–.

قال: (**وعلّق بعضُ السلف في بيته سوطاً يؤدِّب نفسَه إذا فَتَر**).

كان أبو مسلم الخولاني قد علق في مسجده سوطا يعذب به نفسه كلما فترت ويقول: أتظن الصحابة أن يستأثروا بمحمد دوننا؟ والله

لأزاحمنهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا رجالا.[١]

قال: (**فترى ذلك سُدًى، أمْ وَضَحَ أنّا نحنُ المقرّبون وهمُ البُعَداء؟!**

أترى أن خوفهم وورعهم عبث بلا فائدة، أم نحن المقربون من الله فلا نحتاج إلى خوف، وهم البعداء الأكثر ذنوبا، لذا نشطوا للعمل وتكاسلنا.

وهذا أسلوب بلاغي يسمى: «تجاهل العارف»، وهو «إخراج ما يعرف صحّته مخرج ما يشكّ فيه ليزيد بذلك تأكيدا»[٢].

(١) التبصرة لابن الجوزي، ص ٥٠٠.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص ٥٣٠

وهذه أحوالٌ لا تُؤخذ من كتاب السّلم والإجارة والجنايات، نعم، إنما تُنال بالخشوع، وبأن تظمأ أو تجوع وتحمي عينيْك الهُجوع.

ترقيق القلب والخوف من الله – سبحانه وتعالى – لا يُتعَلّم في دروس الفقه، (**إنما تُنال بالخشوع، وبأن تظمأ أو تجوع وتحمي عينيْك الهُجوع**). أي بكثرة العبادة.

والخشوع: إشارة إلى إقامة الصلاة إقامة تامة بلا تقصير، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[العنكبوت: ٤٥] .

والظمأ: إشارة إلى الصيام لأنه من سبل التقوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[البقرة: ١٨٣].

وقوله: «**وتحمي عينيْك الهُجوع**» يريد إحياء الليل بالصلاة والذكر والدعاء، لقوله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾[الذاريات: ١٧-١٨].

وممَّا يُعِينُكَ على الأمر الذي دعوتُ إليه، ويزوِّدُك في مسيرك إلى العرض عليه، أنْ تجعل لك وقتًا تَعْمُره بالفكر والتدبير، وآناءً تجعلُها معَدة لجلاء قلبك، فإنَّه إن استحكم صَدَاه صَعُب تلافيه، وأعرض عنه من هو أعلم بما فيه.

الطريق إلى الله تعالى يُشَبّه بالسفر، فكأن الإنسان في الدنيا في طريق سفر، وفي نهاية السفر يقوم بين يدي الله، ولابد أن يتزود في سفره، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

وبعد أن أوصاه بالعبادة، يوصيه بالخلوة، حيث يختلي بذهنه عن الدنيا ومشاغلها وكل ما فيها، ويذكر الله ويتفكر في حاله ومآله عند الله.

والتذكر ثمرة التفكر.

قال ابن القيم: «أصل الخير والشّرّ من قبل التّفكّر؛ فإنّ الفكر مبدأ الإرادة والطّلب في الزّهد والتّرك والحبّ والبغض. وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجلّ الأفكار،

ويليها أربعة: فكر في مصالح الدّنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدّنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثّمانية دارت أفكار العقلاء. ورأس القسم الأوّل الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنّة نبيّه وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبّة والمعرفة، فإذا فكّر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدّنيا وخسّتها وفنائها أثمر له ذلك الرّغبة في الآخرة والزّهد في الدّنيا، وكلّما فكّر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجدّ والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت. وهذه الأفكار تعلي همّته وتحييها بعد موتها وسفولها وتجعله في واد والنّاس في واد. وبإزاء هذه الأفكار الأفكار الرّديئة الّتي تجول في قلوب أكثر الخلق. كالفكر فيما لم يكلّف الفكر فيه ولا أعطي الإحاطة به من فضول العلم الّذي لا ينفع، كالفكر في كيفيّة ذات الرّبّ ممّا لا سبيل للعقول إلى إدراكه»[1].

وقال عن التذكر: «والتّذكّر تفعّل من الذّكر، وهو ضدّ النّسيان، وهو حضور صورة المذكور العلميّة في القلب، واختير له بناء التّفعّل لحصوله بعد مهلة وتدرّج، كالتّبصّر والتّفهّم والتّعلّم».

---

(١) الفوائد، ص ٢٥٥.

ثم يقول: (وآناءً تجعلُها معَدة لجلاء قلبك)

أي أوقاتا وأزمانا نخصصها لتنظيف قلبك، ووررردت العبارة في بعض النسخ : (إنابةٌ تجعلُها مُعِدّةً لجلاء قلبك).

والإنابة: هي الرجوع إلى الشيء مرة بعد مرة، ومنه: النوبة.

والمقصود هنا: الرجوع إلى الله – سبحانه وتعالى–.

والإنابة إلى الله تعالى: أن يكون قلب المؤمن منجذبًا إلى الله، متوجهًا إليه، متعلقًا به.

وقد أمر الله تعالى بالإنابة إليه في قوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ [الزمر:٥٤]، وفي قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ ﴾ [الروم:٣١].

فقال: (وإنابةٌ تجعلُها مُعِدّةً لجلاء قلبك) أي تجعلها آلة تُعدها وتستعملها لجلاء قلبك.

والجلاء: هو إزالة الصدأ والوسخ.

(فإنَّه إن استحكم صَدَاه صَعُب تلافيه، وأعرض عنه مَنْ هو أعلم بما فيه).

إذا تمكن الصدأ من الحديد ينتهى أمره ويصبح غير قابل للجلاء.

وعندما يكون الصدأ خفيفاً فيجلوه ويُنظّفه، وكذلك القلب.

فيُحذره ويقول له: أولاً بأول، كل صدأ احرص على تنظيفه وإزالته أولاً بأول.

(**فإنَّه إن استحكم صَدَاه صَعُب تلافيه**)، أي أصبح غير قابل للتنظيف والإزالة.

ولعله يشير إلى حديثين:

الأول: عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

الثاني: قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

(٢) أخرجه مسلم ١٤٤.

(**وأعرض عنه**) أي أعرض عن القلب (**مَنْ هو أعلم بما فيه**) أي أعرض الله تعالى عنه.

كما في الحديث قال: «**وأمّا هذا فأعرض، فأعرضَ الله عنه**»[١].

(١) أخرجه البخاري ٦٦، ومسلم ٢١٧٦ عن أبي واقد الليثي.

واجعلْ أكثرَ همومك الاستعداد للمعاد، والتأهب لجواب الملك الجواد، فإنه يقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[الحجر: ٩٢-٩٣].

الجَوَاد: أي كثير العطاء، وهو من أسماء الله تعالى، وقد ورد في الحديث القدسي: « **ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ صَمَدٌ**»(١).

وكأنه يشير لحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»(٢).

وكان من دعاء النبي – عليه الصلاة والسلام–: «**اللَّهُمَّ وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»(٣)، فالمؤمن يكون أكبر همومه الاستعداد للمعاد.

ولعل سبب اختياره اسم الملك والجواد دون غيرهما من أسماء

---

(١) أخرجه أحمد ٢١٣٦٧، عن أبي ذر.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٦٥ بسند صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٥٠٢ بسند حسن.

الله الحسنى، لدلالة الاسمين على ما يريد تقريره.

فالله سبحانه هو الملك، المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، المفتقر إليه كل العالم، فلا غنى لمخلوق عنه سبحانه، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[آل عمران: ٢٦].

فكأنه أراد أن يُعْلِم القارئ بأن الذي تفضل عليك وآتاك ما أنت فيه هو الله.

ثم عقب باسم الله الجواد، فهو الذي عم جوده وفضله كل الكائنات، ومن جوده أنه كتب على نفسه الرحمة، فالرحمة أحب إليه من العذاب، والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فكأنه يتوسل إلى الله تعالى باسمه الملك والجواد أن يجود عليه بالتوفيق والرحمة في الدنيا والآخرة .

ولعله أراد أن يؤكد على ضرورة الاستعانة بالملك الجواد سبحاته وتعالى وضرورة اللجوء إليه، فهو القائل: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ

فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ [فاطر: ١٣] . وعلى الرجاء في رحمة الله الجواد.

ومهما وجدتَ من همَّتك قصورًا، واستشعرتَ من نفسك عمّا يذلِّلُها نفورًا، فاجأرْ إلى الله، وقِفْ ببابه واطلبْ منه، فإنه لا يُعرض عمّن صَدَق، ولا يَعْزُب عن علمه خفايا الضمائر ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

إذا وجدت ضَعْفاً في الهمة والعزيمة على فِعْل الخير ، واستشعرت من نفسك نفوراً من الأشياء التي تنفعك في تهذيب نفسك ومجاهدتها، (**فاجأر إلى الله**) أي: اصرخ بالدعاء واستغث به، ليكشف عنك الضر، وأصله: من جؤار الثور، يقال: جأر الثور يجأر جؤارا، وذلك إذا رفع صوتا شديدا من جوع أو غيره، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[النحل: ٥٣] .

ووردت العبارة في نسخة : (فاجردها إليه) يقال: الفرس الأجرد أي السَّبّاق، والمعنى -على ما في تلك النسخة إن لم يكن تصحيفا- هو اذهب مُسرعاً إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

(**وقِفْ ببابه واطلبْ**)، قف بباب الله تعالى، واطلب منه أن يُصلح نفسك، ويعطيك الرغبة في فِعْل الخير.

(**فإنه لا يُعرض عمّن صَدَق**)، أي مَنْ صَدَق الطلب من الله - سبحانه وتعالى-، فإن الله لا يرده.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ، أَنَّ رَجُلًا، مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ، غَنِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيًا «فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ» فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا هَذَا فَقَالَ: «**قَسَمْتُهُ لَكَ**» قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِ اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى هَاهُنَا وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ قَالَ: «**إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ**» فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَهُوَ هُوَ» فَقَالُوا نَعَمْ قَالَ: «**صَدَقَ اللهَ فَصَدَّقَهُ**» ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى

عَلَيْهِ فَكَانَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ «اللهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَيْهِ»(١).

قال تعالى: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(٣).

(ولا يَعْزُب عن علمه خفايا الضمائر ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤]) أي هو سبحانه العالم بما في الصدور، الذي يعلم الصادق من الكاذب، فكأنه يقول له: كن صادقًا بحق، لأن الله

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» ٢٠٩١، بسند صحيح.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٧٧ عن أبي ذر.

(٣) أخرجه البخاري ١١٤٥، ومسلم ٧٥٨.

تعالى لا يخفى عليه مَنْ هو صادق، واطلب بصدق فإن الله تعالى لن يُعرِض عنك.

فهذه نصيحتي إليك، وحُجّتي بين يَدَي الله -إنْ فرّطتَ- عليك.

كما مر في ترجمته، - أنه قال: (ما فعلتُ فعلاً إلا أعددت له جواباً بين يدي الله) ، ولحديث مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»[1] .

فمن هذا الباب أنه عَيّن النواب، وأعدّ الجواب بين يدي الله، فأقام عليهم الحجة بالنصح والوعظ، والمتابعة والإرشاد.

(١) أخرجه البخاري ٧١٥٠، ومسلم ١٤٢.

أسأل الله لي ولكَ قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا ونفسًا مطمئنةً، بمنِّه وكرمه وخفي لطفه، والسلام. انتهى.

بدأ بنفسه بالدعاء لما روى عن بعض السلف: أنه قال: إذا دعا لأخيه فليبدأ بنفسه.

قال سعيد بن يسار: ذكرت رجلاً عند ابن عمر فترحمت عليه، فلهز فى صدرى وقال لى: ابدأ بنفسك[١].

وقال إبراهيم النخعي: كان يقال: «إذا دعوت فابدأ بنفسك فإنك لا تدري في أي دعاء يستجاب لك».[٢]

وبدأ بالقلب لأن النبي ﷺ بدأ به، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا**»[٣].

عَنْ عُمَر قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ فَقَالَ: «**لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً، تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢٩٢٢٩

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢٩٢٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود ١٥١٠.

أَمْرِ الْآخِرَةِ»[1].

فبصلاح القلب تصلح بقية الجوارح، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء: ٨٨-٨٩].

وخص القلب بالشكر ، ولم يخصه بالخوف أو الرضا أو غيره من المقامات الإيمانية؛ لأن مقام الشكر أعلى المقامات وأرفعها، فمن حقق مقام الشكر، فقد حقق سائر المقامات الإيمانية، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣]

ووصف صفوة عبيده بالشكر، فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾[الإسراء: ٣]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

وسمى ربنا سبحانه نفسه بالشكور والشاكر، وسمى الصفوة بنفس الاسم، وهذا دليل على عظيم محبة الله للشاكرين.

وشكر الله تعالى، هو خضوع القلب واستكانته لله تعالى، وحب

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١٨٥٦، بسند صحيح.

الله، والاعتراف بنعمه، والثناء عليه، وألا يستعمل نعم الله في معصيته سبحانه.

قوله: «**لسانًا ذاكرًا**»

ذكر الله هو دأب الصالحين، وشعار المتقين، وروح القلوب وحياته، فقلب من غير ذكر كالقبر المظلم، وهو عبودية اللسان والقلب معا.

قال ابن القيم عن الذكر: «هو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته»[(١)].

وقوله (**ونفسًا مطمئنةً**)، لأن الله تعالى ذكر النفوس في كتابه، فذكر النفس الأمارة بالسوء، وذكر النفس اللوامة، وذكر النفس المطمئنة، وهي التي تأمر صاحبها بالخير وتحب الخير وتأمر صاحبها به.

والنفس لا تطمئن إلا بالشكر والذكر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٦٩.

وأما المعرض فهو ضنك وعذاب، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[طه: ١٢٤-١٢٦].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٢٨].

فهذا دليل أن النفس لا ترجع إلى الله إلا إذا كانت مطمئنة، ولذلك كان من دعاء السلف: «اللهم هب لي نفسا مطمئنة إليك».

المحتويات

إسناد الشارح إلى المؤلف..... ٣
مقدمة الشارح..... ٤
ترجمة الإمام ابن دقيق العيد..... ٥
متن الوصية ١٦
شرح الوصية..... ٢٠